اكتشاف اثري في مغارة الصاغة

لحضرة احمد بك كمال مفتش الآثار المصرية واحد

سمعتُ وانا تلميذ من استاذي المرحوم بروكش باشا معلم اللسان المصري القديم ان اهرام الجيزة بُنيت من حجارة مغارات جبل المعصرة وقال لنا انهُ شاهد طريقاً يمتد منها ويتجه نحو الاهرام صنعهُ القدماء لسهولة نقل الحجارة . فبقيت هذه الرواية في ذهني وكنت كلما أرى تلك الاهرام أو المغارات أو أمرُّ بمحطة طرّة أو المعصرة اتذكر ما قالهُ لنا واشتاق الى رؤية المغارات حتى ساعدتني المقادير وكُلفت من نحو خمسة عشر شهرًا ان أصف مغارات جبل طرة والمعصرة فابتدأت بالاخيرة وأخذت معي خفير محطة المعصرة وما يلزم من الشمع والمصابيح وابتدأت من المغارات الصغيرة فكنت أطوي سحابة اليوم في البحث والكتابة الى أن تمَّ لي ما اردت بعد مدة شهرين ونصف قاسيت فيها ما يطول شرحهُ ويعجز الواصف عن وصفهِ . وكنت أسمع من بعض الاعراب سكّان تلك الجهة وأصحاب المحاجر التي فيها ومن المعتادين دخول تلك المغارات لجمع ذرق الخفافيش أن في بعضها سراديب تصل الى السويس وارض الحجاز او الجبل الغربي وكانوا يكثرون من ذكر مغارة الصاغة ومغارة الرماد ومغارة الكور ويروون عنها اخباراً غريبة ويقولون انها مساكن الجان ومآوي للارواح الخبيثة . وفيها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وعليها الطلاسم والارصاد والحراس من العبيد المسلحة بالسيوف والكلاب الضارية والقطاط القبيحة المنظر . ومن يدخلها لا يلتماس شيء من ذلك أضلتهُ تلك الارصاد حتى يموت صبرًا بين اموالها . وقالوا ان مغارة الصاغة انما سميت بهذا الاسم لكثرة المصوغات فيها ووفرة الحليّ والجواهر فعزمت على دخولها والبحث عمَّا فيها

وكنت سمعت من الخفير الذي معي ان أباهُ دخلها وثاه فيها ست ساعات وكاد يهلك من الظمإ . وقال لي مرةً أخرى انهُ سمع من ابيهِ ان اعرابياً كان يسكن هذا الجبل واراد ان يعرف ما فيها فأخذ ما يلزم لهُ من ماء وزاد ومصابيح ودخلها وجال فيها ثلاثة ايام ثم خرج منها واخبر الناس انهُ رأى كل سراديبها ومسالكها . وعاد اليها مرةً ثانية فضلَّ فيها وما وقف احد على اثره بعد ذلك

فأذكيتُ مصابيحنا وأخذنا ثلاثين شمعة وما يلزم من الاسلحة والبوصلة (الحك المغنطيسي) وقطعة لحم ودخلت مع الخفير فوجدنا اولاً الى رحبة واسعة منقبها الجبل يتفرع منها عدة سراديب فدخلنا السرداب الذي على يسارنا فما قطعنا منهُ خمسين متراً حتى صرنا في ظلام

خالك وكان معنا سبعة فوانيس صغيرة موقدة ولم نسر طويلاً حتى بلغنا رحبة واسعة قد وقعت طبقة من سقفها فصارت الكة يبلغ ارتفاعها نحو عشرين متراً ويتفرع منها سراديب اخرى. واصفر فيها نور الشمع حتى لم يكد يرينا ما تحت اقدامنا فوقفت وقفة الرجل المدهوش وعزمت اولاً على الرجوع من حيث أتيت. لكني تجلدت ووضعت فانوساً على صخرة مرتفعة ورسمت عليها بالفحمة نبلة جعلت نصلها صوب الباب ومشيت مع الخفير ودخلنا في السرداب الاوّل الذي عن يسارنا ومشينا فيه نحو سبعين متراً فرأيناه يقاطع بسرداب آخر فصار اربعة سراديب فدخلنا في الذي على اليسار بعد ما تركنا فانوساً آخر على صخرة رسمتُ النبلة عليها فوجدناه انتهى برحبة واسعة سقفها محمول على عمد ودعائم في هيئة مخاريط ناقصة منكبسة اي على هيئة قالب السكر الذي رأسهُ الى الاسفل وقاعدته الى الاعلى وقوقها عقود على شكل اقواس من دوائر عظيمة. ومن هذه الرحبة يخرج دروب وشعاب وسراديب أخرى تتجه الى جهات مختلفة وقد تشابهت اعلامها وتشاكلت أعماقها وازورّت زواياها فتركنا فانوساً على حجر رسمت عليه النبلة ودخلنا في السرداب الذي كان امامنا والبوصلة في يدي فما سرنا مئتي متر حتى رأيتُ عقرب المغناطيس يتذبذب تارة الى المشرق وتارة الى المغرب وسمعت حفيف أجنحة الخفافيش واصواتها المزعجة يردّدها صدى السراديب بدويّ شديد. ورأيت سراديب خرجت عن يميننا ويسارنا فوضعنا فانوساً رابعاً على حجرين ورسمت النبلة ونصلها صوب النانوس الثالث وأخرجنا شمعاً واذكيناه ودخلنا السرداب الذي الى اليسار فرأينا فيه سراديب كبيرة عن اليمين وعن اليسار وكلها مسدود. وهجم علينا جيش من الخفافيش وجعلت تضرب وجوهنا باجنحتها وتلمح علينا وتهددنا باطفاء المصابيح لكنا تجلدنا حتى انتهينا الى آخر السرداب فوجدناه غير نافذ ايضاً. وكنت الاحظ كل شيء مدّة سيري في هذه السراديب فعلمت ان اتساعها يختلف ما بين عشرة امتار وثلاثين متراً وارتفاعها ما بين اربعة امتار واحد عشر متراً وعلى ارضها طبقة من الدبش الباقي من قطع الحجارة والصخور المتقدّة من السقف بفعل الزلازل يبلغ سمكها من نصف متر الى ثلاثة امتار. لكني رأيت بعض السراديب نظيفاً لا شيء فيه

وعرفت من هذه المغارة ومن غيرها كيف كان القدماء يقطعون الحجارة وهم في ذلك طريقة غريبة فانهم كانوا يبتدئون بالعمل من الاعلى حتى ينتهوا الى الاسفل بدليل الدرجات المصنوعة في نهاية كل سرداب. وشاهدت في السقف والجدار حجارة بارزة في هيئة زوايا مجسمة ممتدة في عرض السقف والجدار بعض بعضها بعضاً كأمواج البحر وحتى كانت الحجارة بيضاء لامعة كأشعة سمن بني بعضها بعضاً على خط مستقيم

وفي السقف خطوط حمر وزرق ممتدة على اتجاه السرداب وهي مما رسمهُ المهندس لكي لا تميل العمال الى اليمين ولا الى اليسار ورأيت بعض الحجارة مقطوعاً من اسفل السقف من ثلاث جهات ولم ينفصل من موضعهِ ثم عدنا في طريقنا واخذنا فوانيسنا التي كنا تركناها لنهتدي بها في عودتنا حتى انتهينا الى باب المغارة وهذه رحلة اوَّل يوم

وعدنا في اليوم الثاني واستأنفنا العمل وكنا نبتدئُ دائماً بالسرداب الذي على اليسار ومتى انتهى وضعت على بابهِ حرف (ا ه) ثم ندخل الذي يليهِ وهكذا . فاذا كان السرداب متشعباً دخلنا شعبهُ على الترتيب وجعلنا عليها علامات كذلك واعتمدنا في سيرنا على الفوانيس والشمع والاشارات التي اصطلحنا عليها . وكنا نبتدئُ بالعمل كل يوم الساعة الثامنة صباحاً ونستريح ساعتين في الظهيرة ونعود الى العمل حتى الساعة الرابعة مساء وبقيت على هذه الحالة ثلاثة عشر يوماً حتى فرغتُ من هذه المغارة وسراديبها فلم اجد فيها ذهباً ولا فضة ولا طلاسم ولا كلاماً وألفت منظرها الموحش حتى صارت عندي كشوارع القاهرة . وكنا نهتدي احياناً الى الابواب بلسان لهب الشمع اذا مال بهِ الهواء او باتجاه طيران الخفافيش لانها اعلم منا بها وصاحب البيت ادرى بالذي فيهِ

واطول سراديبها واصعبها السرداب المعروف باسم الاصطبل فان فيهِ سبعة مضايق تعرف بالعقبات يمر الانسان منها اما حبواً على ركبتيهِ واما زحفاً على بطنهِ تحت صخور وقعت من السقف امامها صخور اخرى معترضة يتسلقها ويمشي عليها بالاحتراس التام لانهُ اذا زلت رجلهُ هوى بينها وربما ساخت بهِ بعض الصخور الى ثلاثة امتار فاكثر فيعسر خروجهُ من بينها وطول هذا السرداب من الرحبة التي يخرج منها الى آخرهِ نحو ٩٠٠ متر وينتهي برحبة وقعت فيها طبقةٌ من سقفها وترى لهُ منظراً يأخذ بالابصار في ضوء الشمع فان فيهِ ما يشبه فتات الالماس او البلور ودموع الملح معلاة بفروعها اللطيفة وارتفاع السقف يختلف من متر ونصف الى مترين ونصف وقبل ما يصل الانسان الى هذه الرحبة يجد سرداباً على اليمين متشعباً الى سردابين فيهما من الخفافيش ما يذهل العقل بكثرتهِ وكبر جرمهِ لانهُ في جرم الحمام فلما دنونا منها هاجت علينا واندفعت كالسيل المنهمر فتركنا المصابيح واحتمينا بالصخور

وفي مدة الثلاثة عشر يوماً التي قضيتها في التردد على هذه المغارة لم اضل الطريق غير مرة واحدة وذلك اني دخلت احد السراديب فانتهى بكة مرتفعة ترابها كالدقيق يأتي من تحت الحجارة فصعدنا عليها ونظرنا امامنا فرأينا السرداب قد انتهى وفي اسفل الحائط او الجدار بقعة سوداء فقصدناها فاذا هي حفرة صغيرة يبلغ قطرها نحو ستين سنتمتراً وعمقها نحو متر

فنزلنا فيها فاذا فيها سرداب ضيق جداً طوله نحو متر ونصف ينتهي بفتحة مثل الاولى فخرجنا منها الى رحبة كدائرة غير تامة الاستدارة ارتفاع سقفها نحو متر وربع واتساعها نصف فدان وارضها مغطاة بالدبش ولم نجد فيها شيئاً

ولما اردنا الرجوع لم نهتدِ الى الفتحة فصرنا نبحث عنها ولما لم نجدها طار عقلي شعاعاً وغشيني من الهم ما غشي آل فرعون في اليم وتخيلت ان الجبل انطبق على صدري ومكثنا على ذلك نحو ربع ساعة وتذكرت حكايات من ماتوا فيها وكنت انظر الى الحجر فاراه يدور فيها بجوار الجدر من غير جدوى وقد امتقع وجهه وتلعثم لسانه فاخذته بيده وتوجهنا الى الجهة الجنوبية وقلت له اجعل الحائط دليلك وامعن النظر في اسفله وامش الى اليمين ومشيت انا الى اليسار فما كدت اخطو عشر خطوات حتى رأيت الحفرة فناديته ونزلت مسرعاً وانا لا أصدق بالسلامة والى هنا انتهى ما رأيناه وما قاسيناه فيها بالاختصار

اما الوصف العام لهذه المغارة فهي انها واقعة بين وادين وبينها وبين محطة المعصرة نحو اربعين دقيقة ولما احد عشر بابا يرى بعضها من المحطة وليس فيها سراديب مستقيمة بل يتفرع بعضها من بعض واغلبها غير نافذ وترى السرداب يسير مستقيماً وينقطع بالرحبات ثم يخرج منها جملة شعاب ودروب يخرج منها غيرها ويتخللها رحبات اخرى ثم شعاب وسراديب مثلها قد تقاطعت بعضها مع بعض واغلبها مسدود فيكون من منظرها العام شبكة غير منتظمة الانماط

اما رحباتها فمنها ما هو على شكل مستطيل او دائرة غير منتظمة او مربع او معين غير منتظم وفي بعضها دعائم تحمل سقفها ولها اشكال مخصوصة عجيبة ولكثرة ما يُرى فيها من تقاطع السراديب صار منظرها مخيفاً تنقبض منه النفس ويحار فيه العقل لاسيما وانها كلها ظلام حالك لا تنيره المصابيح الا قليلاً . وفي بعض سراديبها بقرب الابواب اروقة ومقاصير لها دهاليز كانت معدة لسكن المهندسين ورؤساء العمل وبها صهاريج صغيرة مصنوعة في الحجر لشرب الماء وعلى بعض السراديب اسماء بعض الملوك المصريين مما يدل دلالة واضحة على انها لم تصنع في زمن واحد . ويخرج من ابوابها طريق عظيم يتجه صوب اهرام الجيزة يمرّ في سفح الجبل نحو كيلومترين ثم يختفي اثره

اما مقدار الحجارة التي اخذت منها فلا يمكن معرفته الا بالتقريب وهو اذا فرضنا اني كنت أمشي كل يوم في الساعات الست التي خصصتها للعمل ثلاثة كيلومترات فقط فمجموع ذلك ٣٩ كيلومتراً فاذا كان متوسط عرض السرداب خمسة عشر متراً ومتوسط ارتفاعه خمسة امتار بلغ الفراغ كله ٢٩٢٥٠٠٠ متراً مكعباً فاذا اضفنا الى ذلك ٧٥٠٠٠

متر مكعب قيمة فراغ السخمات والرحبات بلغ المجموع ٣٠٠٠٠٠٠٠ متر مكعب. ومن المعلوم أن حجارة الهرم الاول تبلغ ٢٥٦٢٥٧٦ متراً مكعباً فاذا طرحنا مكعب حجارته من مكعب فراغ المغارة بلغ الباقي ٤٣٧٤٢٤ متراً مكعباً من الحجر لابد انها استعملت في مبانٍ أخرى وبلغ ما فيها الآن من الصخور والدبش الباقي من العمل او من الزلازل سبعمائة الف متر مكعب على الاقل فاذا فرضنا ان العامل لا يقطع في اليوم الواحد الا نصف متر مكعب فكم حجّار من المائة الف عامل المذكورة في تاريخ هيرودوتس لزم لحفر هذه المغارة التي بلغ فراغها او الحجارة المقطوعة منها نحو ٣٧٠٠٠٠٠٠ متر مكعب وقد عمل العمال فيها عشر سنوات على قوله وكم كان عدد النجاتين وعدد الحمالين وعدد من يحمل الدبش ويلقيه بعيداً وعدد المباشرين والمهندسين وسائقي العربات والمقدمين والحدادين والسقائين. وهل هذه المغارة تسع المائة الف عامل المذكورة او اشترك معها غيرها؟ وهل اسماء الملوك التي فيها حقيقية وهم حفروها او حفرها غيرهم ثم كتبت اسماؤهم في ايامهم ليجعلوا لهم بذلك شهرة كاذبة كاص يختلس مال غيره. وما مبلغ علم المهندسين الذين علقوا هذا الجبل في الهواء لاني كنت كلما مشيت في هذه المغائر اقف حائراً مدهوشاً من عظمتها فيكبر في عيني منظرها ويهولني امرها وكلما زدتها لثقةً زادتني دهشة وكلما استنبطت امراً غريباً علمت ان ما وراءه اغرب منه. وبالجملة اقول انهم نقلوا جوف هذا الجبل من الشرق وساروا به الى الغرب وجعلوه اهراماً وصيروا هذين المكانين أعجوبتين على مر الدهور وكرّ العصور

وعندي ان رؤية هذه المغارة لولا صعوبة السير فيها أغرب من كل غريب بل ومن الاهرام نفسها وأفتخر بأني أول من دخلها وجاس خلالها وعرفها وكتب وصفها كما كتبت وصف غيرها وها هي علاماتي واشاراتي مبثثة في جميع ارجائها ونحائها

ولو كانت هذه المغارة في بلاد غير بلادنا لتشكلت لها جمعية من اهل اليسار واصلحت طرقها وسهادبها وأنارتها بالنور الكهربائي وجعلت فيها المركبات تجول بالزائرين ورغبت الناس من كل الاقطار في المجيء اليها والاطلاع عليها

وكنت اظن قبل ان رايتها ان مغارة الشيخ عبادة اكبر مغارة في القطر المصري كما ذكرتها في كتابي " الاثر الجليل لقدماء وادي النيل " فظهر لي الآن انها كأحد مرادبها [1]

ستأتي البقية

(١) راجع مغارة الشيخ عبادة في الصفحة ٢٦ واهرام الجيزة في الصفحة ٦١ من كتاب الاثر الجليل